الباب الرابع

بين العلم والإيمان

- دعوى الاستغناء بالعلم المادى.
- مجال العلم غير مجال الإيمان.
- نتائج العلم تقريبية لا يقينية.
- الرسوخ فى العلم يهدى إلى الإيمان.
- هل وراء الإلحاد مكاسب حقيقية؟
- هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل.
- الحرية الشخصية وآثارها.
- علم النفس لا يُغنى عن الإيمان.
- الطب النفسى فى موكب الإيمان.

بين العلم والإيمان

● **دعوى الاستغناء بالعلم المادى :**

خُيِّلَ لبعض الناس فى وقت من الأوقات – ولا يزال يُخيَّل لبعضهم إلى اليوم– أن الإنسان يمكنه أن يستغنى عن الدين، وأن يعيش «متحرراً» من تكاليف الإيمان، وخاصة فى هذا العصر، عصر العلم، الذى استطاع به الإنسان أن «يقهر» الطبيعة وينتصر عليها، ويُسخِّرها لمنافعه، فيُفجِّر الصخر، ويُحوِّل مسير النهر، ويغوص فى أعماق البحر، ويُحلِّق فى أعالى الجو، حتى راح يُزاحم الكواكب فى فضائها، والأقمار فى مداراتها، وبعد أن زاحم الحيتان والأسماك فى قاع المحيطات .. وحتى قال بعضهم فى غرور وصلف : إن الإنسان غداً سيصنع نفسه!

● **المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم:**

قالوا: فهو بواسطة هذا العلم يستطيع أن يُكيِّف حياته، ويُنظِّم شؤونه بعيداً عن الإيمان بالله، وبمعزل عن رسالاته، وهو يظن أنه بهذا يكسب عدة أشياء.

أولها: الصحة العقلية والنفسية. فإن عقائد الدين والإيمان بالغيب، تسبب للمثقف العصرى قلقًا ذهنيًّا، ناتجًا عن إيمانه بشىء لا تقوم عليه الأدلة العلمية، ولا تشهد له التجارب الحسِّية.

ثانيها: الحرية الشخصية: فإن للإيمان بالله ورسالاته قيوداً والتزامات تحد من انطلاق الإنسان، وتقيِّد من حريته، وتضعه فى قفص حديدى مُحكم،.وفقًا لنظرية «الحلال والحرام» التى لا يخلو منها دين. وبهذه الحرية يستمتع الإنسان بطيبات الحياة كلها دون حجر ولا تدخل من سلطة كهنوتية.

ثالثها: العمل للحياة الدنيا وترقيتها. فإن الدين بما فيه من زُهد وإقبال على الآخرة، يُدير ظهره للدنيا، ويُحقِّر من شأنها، ويتهم العاملين لها بأنهم معرضون

عن الله وعن الحياة الباقية. فالدنيا والآخرة عنده ضُرتان إذا أرضيت إحداهما أسخطتَ الأخرى.

● **نقض هذه الدعوى:**

وهذا الزعم الذى نفقت سوقه فى الغرب زمنًا، ثم صدَّره إلينا عملاؤه – الهواة والمحترفون – من بعد، ليس له أساس من منطق سليم، ولا من علم صحيح، ولا من واقع مُجرَّب. وسنتناول فى الصفحات التالية نقض هذه الدعوى، وإبطال هذا الزعم، مستندين إلى المنطق والعلم والواقع، كفى بها أدلة لقوم يعقلون.

أولا: مجال العلم غير مجال الإيمان:

إن للعلم اختصاصًا لا يتعداه، ومجالاً لا يتجاوزه، ذلك هو مجال الماديات والمحسوسات التي تدخلها الملاحظة والتجربة، وهي وحدها التى يمكن التحكم فيها، وإجراء التجارب عليها، واستخلاص النتائج منها، ففى هذه الحدود وما ماثلها يعمل العلم، أما ما عدا ذلك مما وراء الحس، وما وراء المادة، فليس من وظيفة العلم، ولا من اختصاصه، إنما هو وظيفة الفلسفة أو الوحى، فإذا وُجدَ من رجال العلم من يقول: إننى لم أجد دليلاً علميًا على وجود الله أو صدق الرُسل أو وجود الملائكة مثلا، قلنا له: لقد عدوتَ قدرك، وخُنتَ علمك، حيث ورطته فيما ليس من شأنه، وهل وجدتَ فى مختبرك أن الله غير موجود!.

إن العلم منهج صحيح لمعرفة المادة، ولكنه ليس منهجًا صحيحًا لمعرفة ما وراء المادة. إنه يستطيع أن يعرف كيف تسير الأشياء، ولكنه لا يعرف شيئًا عن مسيرها، ولا لماذا سيرها؟

إن العلماء – كما قال صاحب فيض الخاطر – قد اتجهوا بمنهجهم العلمى اتجاها صحيحًا نحو «عجلة» العالم يفحصونها ويجربونها ويمتحنونها، ولكنهم لم يتجهوا نحو «مُحرِّك» العجلة، وليس فى مقدور علمهم وحده – وهو مبنى على الحس والتجربة – أن يضع أيديهم على مُحرِّك العجلة، لأنه لا يُرى ولا يُدرك بالحس، ولا يدخل المعمل، ولا يجرى فى أنانبيب الاختبار.

لقد تقدَّم العلم وتقدَّم، واعتز بنفسه وملأه الغرور، ومع هذا كله لم يستطع

أن يُفسِّر إلا السطح وإلا المظاهر، ما العلة الأولى للخلق؟ من الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم؟ كيف نُفسِّر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة؟ وفى عجائب أنفسنا؟.

إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق، وهو الظاهر والإجابة عن «كيف». أما النصف الآخر، وهو أقوم النصفين، وهو باطن الحقائق والإجابة عن «ما هى» لا «كيف هى»، فعاجز كل العجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف.

إن من يؤمن بالعلم وحده، وينكر ما وراءه، ومن يؤمن بالقوانين العلمية وينكر ما عداها، لا يؤبَه بقوله حتى يقول: إنى أستطيع أن أفسِّر العالم من ألفه إلى يائه، فأما أن يُفسِّر الآلة، ولا يُفسِّر مُحرِّكها، ويُفسِّر تطور الحياة وتدرجها، ولا يُفسِّر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السخف، أو هو – على أحسن تفسير – كقول الطفل: لا أعلم، لأنه يريد أن يتعلم.

إن إنكار العلة الأولى للعالم، وعقل العالم الذى يدبره. يلقى على عاتقنا عبئًا لا نستطيع حمله.

«إن العالم فى حقيقة أمره يزيد عجائبنا ولا يحلها، هذا الفلكى بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلته، ماذا صنع؟ أبان بأن ملايين النجوم فى السماء بالقوة المركزية بقيت فى أماكنها أو أتمت دورتها، كما أن قوة الجاذبية فى العالم حفظت توازنها، ومنعت تصادمها، ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم ويُبيِّنوا حجمها وسرعتها وبُعدها عن الأرض، فزادونا عجبًا، ولكن ما الجاذبية؟ وكيف وجدت؟ وما القوة المركزية وكيف نشأت؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد؟ أسئلة تخلى عنها الفلكى لما عجز عن حلها. وأبان الجيولوجى لنا من قراءة الصخور، كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت؟ وكم آلاف من السنين مرت عليها فى عصرها الجليدى، وكيف غُمرت بالماء؟ وكيف ظهر السطح؟ وأسباب البراكين والزلازل. وكذلك فعل علماء الحياة فى حياة الحيوان، وعلماء النفس فى نفس

الإنسان، ولكن هل شرحوا إلا الظاهر، وهل زادونا إلا عجبًا، سلهم كلهم بعد السؤال العميق الذى يتطلبه العقل دائمًا وهو: من مُؤلِّف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التى شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها؟ أتأليف ولا مؤلف، ونظام ولا مُنظِّم، وإبداع ولا مُبْدع؟ من أنشأ فى هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه؟ من أوجد عقله الذى يُدبره؟

«إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً للمبدع، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر، وكلما تكشفت أسرار العالم، وتكشفت وحدته ووحدة تدرجه ووحدة نظامه وتدبيره، كان الإنسان أشد عجبًا وأشد إمعانًا فى السؤال وليس يقنعه بعد كشف العلم عن أسرار العالم وعجزه عن شرحها وتعليلها إلا أن يعتف من أعماق نفسه «إنه الله رب العالمين» (١).

ثانيا: نتائج العلم تقريبية لا يقينية:

إن نتاج العلم ليست – كما يظن بعض الناس – قطعية يقينية: مائة فى المائة (١٠٠٪) وبصورة دائمة، فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة فى كثير من نتائج العلم، ذلك أن أساس العلم هو التجربة، والتجربة أساسها الحس، والحواس كثيرا ما تخدع، وهذا ما أقَرَّ به المحققون من العلماء.

يقول عالم أمريكى معاصر هو الأستاذ «ماريت استانلى كونجدن» فى مقال له: «إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه، ومدى بُعده عن الدقة فى ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته ... ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهى بذلك مقصورة على الميادين الكمية فى الوصف والتنبؤ .. وهى تبدأ بالاحتمالات، وتنتهى بالاحتمالات كذلك، وليس باليقين ... ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعُرضة للأخطاء المحتملة فى القياس والمقارنات .. ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل والإضافة والحذف وليست نهائية» (٢).

وتاريخ العلم يُبيِّن لنا أن كثيراً من الآراء التى كانت فى بعض العصور حقائق

---

(١) فيض الخاطر، جـ٤، ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) من كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» مقال: «درس من شجيرة الورد».

علمية، ولا تقبل الجدل، ولا تحتمل الشك، دار عليها الفلك دورته، فإذا هى فى عصور تالية أغاليط وأباطيل لا يقوم عليها برهان ولا شبه برهان.

بل إن بعض العلوم الأساسية قد تغيَّرت أسسها، وتبدَّلت موازينها، كما رأينا ذلك فى قرننا العشرين.

يقول الكاتب التركى الأستاذ «بيامى صفا» فى بحث له عن «المفهوم الجديد للإنسان» (١):

«إن إنسان القرن العشرين يعيش فى أزمة منذ أن بدأ يدرك خطأ هذا المعنى الذى أضفاه على نفسه، منذ نهاية القرون الوسطى، أى بدأ يدرك خطأ «تأليه» نفسه. وما حركات التجديد فى العصر الحديث إلا بداية للنفور الموَّجه إلى هذا المعنى.

فقد عرف الإنسان عدم كفاية العلم الذى أراد أن يضعه مكان الدين، ومكان موازين القيَم المعنوية، فلقد شهد العلم نفسه انهيار أساسين وقاعدتين من قواعده، هذين الأساسين اللَّذين كانا بمثابة البداهة حتى نهاية القرن الماضى.

فكما قال «أورتاكاى كست» فى اجتماع جنيف: بأن الفيزياء والمنطق اللذين هما أساسًا (العلم الذى قام عليه بناء المدنية الغربية) قد هدما نفسيهما، بنفسيهما: «إن فجاعة الدراما ربما لا تكون ظاهرة لكل عين، لأن عين غير الخبير لا تكشف فى قطرة دم تحت الميكروسكوب علامات مرض قاتل. ولكن كل خبير يستطيع أن يُقدر بأن الوضع الذى سقط فيه المنطق والفيزياء اليوم لهو أبلغ فى الإشارة إلى الأزمة التى تعانيها مدنيتنا من جميع فجائع السياسة والحرب، لأن هذين العلمين كانا بمثابة الصندوق الذى يُخبئ فيه الغربيون فائضهم من الذهب، استعدادًا لاستقبال الأيام المقبلة بأمن وطمأنينة».

وبعد أن شرح العالم الشهير كيف غير الفيزياء أساسه، وكيف أن المنطق فى

---

(١) عن مجلة «المسلمون» ٨٢ – المجلد الثامن – العدد الثامن – ذو الحجة ١٣٨٣ هـ – آيار (مايو) ١٩٦٤. ترجمة الأستاذ أورهان محمد على.

ظرف خمسين سنة بواسطة أبحاث ودراسة «رسل» و«وايتهيد» و«هليبرت»، قد غيَّر أساسه أيضًا، تابع كلامه: «إن مدنيتنا أصبحت تعلم الآن أن أسسها فى حالة إفلاس، ولذلك نراها تشك فى نفسها، ولكن ليس من الممكن أن تموت حالاً أية مدنية لمجرد هزة شك، وإنما على العكس فإننى أرى أن المدنيات لا تموت إلا من تصلب المعتقدات وتحجرها. وكل هذه تُشير إلى أن شكل مدنيتنا أو بالأصح شكل المدنية التى يبجلها الغرب قد جف وانتهى».

ثالثاً: الرسوخ فى العلم يهدى إلى الإيمان:

إن العلم ليس خصمًا للإيمان، ولا ضدًّا له، بل هو دليل يهدى إليه، وقد رأينا كثيراً من العلماء الراسخين المنصفين، هداهم علمهم إلى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه، وترعى كل شىء فيه بميزان وحساب ومقدار، ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبانة ما فى هذا الكون من ترابط وتناسق وإحكام، يتجلى فى كل خلية من خلايا أحيائه، وفى كل ذرَّة من ذرَّات جماداته. فى خلق السموات والأرض. فى اختلاف الليل والنهار. فى الفُلْكِ التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس. فيما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. فيما بثَّ الله فى الأرض من الدواب والأحياء، فى تصريف الرياح. فى السحاب المُسَخَّرِ بين السماء والأرض.

ولا عجب أن قرأنا لكثير من علماء الكون – فى الطبيعة والفَلَك، والرياضيات، والأحياء وغيرها – شهادات ناصعة اعترفوا فيها بوجود الله، وصحة الدين، وهى شهادات تقطع ألسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحًا يحاربون به الدين.

إن بعض الذين ينتسبون إلى «العلم» يعيشون بعقلية قرن مضى أو قرنين، ولا يتابعون التطور الهائل الذى حدث فى ميدان العلم والفكر فى هذا القرن، فهم أول من يستحق اسم «الرجعيين» لأنهم سجناء نظريات انقضى عصرها، وذهبت ريحها، وطُرحت فى زوايا النسيان. فليسمعوا ما يقول علماء هذا العصر.

يقول الأستاذ «هوشل»: «كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى، لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده».

وأفاض «هربرت سبنسر» فى هذا المعنى فى رسالته فى «التربية» إذ يقول: «العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه، يوجد فى كثير من العلم الطبيعى الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذى فات المعلومات السطحية، ورسب فى أعماق الحقائق، براء من هذه الروح، العلم الطبيعى لا ينافى الدين، والتوجه إلى العلم الطبيعى عبادة صامتة، واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى نعانيها وندرسها، ثم بقدرة خالقها، فليس ذلك التوجه تسبيحًا شفهيًّا، بل هو تسبيح عملى، وليس باحترام مُدَّعى، وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد فى تفهيم الإنسان استحالة إدراكه كُنه السبب الأول وهو «الله»، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح فى تفهيمنا الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التى لا يُستطاع اجتيازها، ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك يُرينا - بكيفية لا تُعادل - صغر العقل الإنسانى إزاء ذلك الذى يفوت العقل».

ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما ذهب إليه فقال:

«إن العالم الذى يرى قطرة الماء، فيعلم أنها تتركب من الأوكسوجين والأيدروجين بنسبة خاصة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء، يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته، وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب، وكذلك العالم الذى يرى قطعة البَرَد (قطعة الثلج الصغيرة النازلة مطرًا» وما فيها من جمال الهندسة، ودقة التصميم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمَّد من شدة البرد.

وهذا هو الدكتور «دى نوى» الطبيب العالِم الذى اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى، يقول: «كثير من الأذكياء وذوى النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه، على أن الإنسان الأمين الذى تنطوى نفسه على الشوق العلمى لا يلزمه أن يتصوَّر «الله» إلا كما يلزم العالِم الطبيعى أن يتصور «الكهرب»، فإن التصور فى كلتا الحالتين ناقص وباطل، وليس الكهرب قابلاً للتصور فى كيانه المادى وإنه – مع هذا – لأثبت فى آثاره من قطعة الخشب» (١).

وهذا العالِم الطبيعى «سير آرثر طومسون» المؤلف الاسكتلندى الشهير يقول: «إننا فى زمن شُقَّت فيه الأرض الصلبة، وفقد فيه الأثير كيانه المادى، فهو أقل الأزمنة صلاحًا للغلو فى التأويلات المادية» (٢).

ويقول فى مجموعة «العلم والدين»: «ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالِم الطبيعى لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة، إذ ليست هذه وجهته، وقد تكون النتيجة أكبر جدًّا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسَّروا للنزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيراً فى أيام آبائنا وأجدادنا. فإذا لم يكن على الطبيعيين أن يبحثوا عن الله – كما زعم مستر «لانجدون دافيز» خطأ فى كتابه البديع عن الإنسان وعالمه – فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى، ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماءً جديدة وأرضًا جديدة وحفزه من ثَمَّ إلى غاية جهده العقلى، فإذا به فى كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله» (٣).

وقد حفلت مكتبات العالَم – بمختلف اللُّغات الحية – بكتب قيمة، ألَّفها «علماء» راسخون متبحرون، كلها تهدى إلى الله وتدعو إلى الإيمان به.

(١، ٢، ٣) عقائد المفكرين فى القرن العشرين، للأستاذ العقاد.

وحسبنا – مما كُتِبَ بالإنجليزية ونُقِلَ إلى العربية – كتابان حازا شُهرة عالمية واسعة.

أحدهما: ألَّفه «أ. كريسى موريسون» رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك، وعضو المجلس التنفيذى لمركز البحوث القومى فى الولايات المتحدة وأحد أقطاب العلوم الكونية فى عصرنا، وعنوان كتابه فى الأصل «الإنسان لا يقوم وحده»، وقد كتبه ردًّا على «جوليان هكسلى» فى كتابه الإلحادى «الإنسان يقوم وحده» يعنى: مِن غير إلَه!.

وقد ترجم الأستاذ محمود صالح الفلكى كتاب «أ. كريسى موريسون» إلى العربية بعنوان يدل على وجهة العلم فى هذا القرن. وهو «العلم يدعو للإيمان».

والثانى: كتاب اشترك فى تأليفه ثلاثون عالِمًا من أشهر العلماء المتخصصين فى أمريكا. كل واحد منهم كتب فيه مقالا، بين كيف اهتدى إلى وجود الله والإيمان به، عن طريق علمه واختصاصه، وذلك هو كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم»، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش سرحان (١).

● هل وراء الإلحاد مكاسب حقيقية؟

أما المكاسب التى يزعم بعض الناس أو يتوهمون أن الإنسان قد حصل عليها – أو على الأقل يستطيع أن يحصل عليها – عن طريق الاكتفاء بالعلم، والانسلاخ من الإيمان، فالواقع أن هذه المكاسب إما وهم عريض وزعم مفترى، وإما خسائر حقيقية فى صورة مكاسب عند بعض الناس.

ولنناقش هذه المكاسب واحدًا بعد الآخر.

---

(١) أما اللُّغة العربية فقد كُتِبَت فيها بحوث ومقالات وكتب شتى منها: «سنن الله فى الكائنات» للدكتور محمد أحمد الغمراوى، و«مع الله فى السماء» للدكتور أحمد زكى، و«قصة الإيمان» للشيخ نديم الجسر، وما كتبه أخيرًا الدكتور محمد جمال الدين الفندى والأستاذ عبد الرزاق نوفل، بالإضافة إلى كتابات المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره «الجواهر» والمرحوم الدكتور عبد العزيز (باشا) إسماعيل وغيرهما.

● **دعوى الصحة النفسية والعقلية:**

أما ما يُقال من أن الانخلاع من الدين يؤدى إلى صحة النفس والعقل، فهو أمر يُكذِّبه الواقع، وينفيه ما نشاهده فى دنيا الحضارة الغربية الآلية المادية، التى أخذت زخرفها وازيَّنت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، بما أوتوا من العلم التجريبى، والتقدم التكنيكى.

فهذا العالم الغربى (العلمى) الحديث، يعانى من أمراض النفس والعقل ما يسهد عليه ليله، ويكدر عليه نهاره.

وهذا أمر لاحظه وحذَّر منه الفلاسفة المفكرون، وشاهده وشهد به العلماء المجربون، وأحس به وعبَّر عنه الأدباء والفنانون، وانتبه إليه وسجَّله الكُتَّاب والصحفيون.

فمن الفلاسفة والمفكرين تقرأ شهادة الفيلسوف المؤرخ البريطانى المعاصر «توينبى» إذ يقول [1]: «لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها، وجعلتهم يُسلمونها قيادَ أنفسهم ببيعها «المصابيح الجديدة» لهم مقابل «المصابيح القديمة»، لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلاً منها «السينما» و«الراديو»، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضارى الذى سببته تلك «الصفقة الجديدة» إقفاراً روحيًّا، وصفه «أفلاطون» بأنه «مجتمع الخنازير»، ووصفه «ألدوس هكسلى» بأنه «عالم زاه جديد»!

ويأمل «توينبى» فى نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين، ولكنه لا يخبرنا كيف سيتم هذا الانتقال، وإنما يؤكد قائلاً: «إن الغربى يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفًا روحيًّا يضمن سلامته بالقوة المادية التى ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية».

فكأن توينبى يجيب بهذا على سؤال «إيفان ستراود» كيف تستطيع روحية الإنسان أن تسيطر على ازدهاره المادى؟

---

(١) نقل ذلك عنه المفكر المعاصر «كولن ويلسون» فى كتابه «سقوط الحضارة».

ويقول الفيلسوف الشاعر المسلم الدكتور محمد إقبال:

«الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية، وتخصص علمى، يجد نفسه فى ورطة، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانًا على قُوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو.

الإنسان العصرى، وقد أعشاه نشاطه العقلى، كَفَّ عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبًّا طاغيًا، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئًا فشيئًا، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة، وقد استغرق فى «الواقع» أى فى مصدر الحس الظاهر للعَيان، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد، وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه، والذى أدركه هكسلى (Hyxley) وأعلن سخطه عليه»[1].

ومن العلماء التجريبيين الذين قضوا جل أعمارهم فى المعامل والاختبارات، الدكتور «ألكسيس كاريل» أحد أقطاب العلم الحديث الذى يقول فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول»[2]:

«من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عددًا من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم» ويقول «س.و.بيرس»: «إن شخصًا من كل ٢٢ شخصًا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر»!!

«وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين. ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض

---

(١) تجديد الفكر الدينى فى الإسلام، للدكتور محمد إقبال ص ٢١٤.

(٢) الترجمة العربية ص ١٨٧، ١٨٨.

العقلية وما يماثلها من المؤسسات، حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً!

«ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية: ٣٤٠ر٠٠٠ مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١ر٥٨٠، وكان عدد مطلقى السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠ر٩٣٠ . ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالَج فى المستشفيات الخاصة. وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠ر٠٠٠ من ضعاف العقول، ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية، عن أن ٤٠٠ر٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة، والإفادة مما يتلقون من علم ... وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليًّا أكثر من ذلك بكثير، ويُقدَّر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية [١]. وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضر للعطب، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تُعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى. فإن أمراض العقل خطر داهم: إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى، بل والتيفوس والطاعون والكوليرا. فيجب أن يُحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تُزيد عدد المجرمين فحسب، بل لأنها ستُضعف حتمًا التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء (كذا). على أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجَدون بها بين أفراد الشعب!!

صحيح أن عددًا كبيرًا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون. بَيْدَ أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة، ما زالوا مُطلقى السراح!.

---

(١) هذه الإحصاءات قد مضت عليها سنوات غير قليلة، وقد تضاعفت أكثر من مرة فى هذه الفترة الأخيرة.

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذى تعانى منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية ».

وفى مجال الأدب والصحافة نكاد نقرأ كل يوم جديداً عن السخط والقلق والتوتر الذى يسود الحياة فى الغرب، نتيجة للانحراف عن الإيمان بالله والآخرة والاستغراق فى المطالب المادية وحدها.

وأكتفى هنا بنموذج مما نشرته صحيفة « الأخبار القاهرية » فى يوم واحد :

فى يوم ١٢ / ٢ / ١٩٦٠ فى « أخبار الأدب » نشرت الصحيفة تحت هذا العنوان « الأفيون والقرف » الخبر التالى :

« البوليس فى أمريكا اعتقل عشرات الأدباء والشُعراء من « جمعية الأدباء الساخطين » ولم يكن السبب هو الاعتراض على آثارهم الفنية، بل على سلوكهم الاجتماعى، على تعاطيهم للأفيون، ودفاعهم عن هذه المخدرات بصورة عدائية، وعلى إثر اعتقالهم أصدر « ويليام روراك » من الأدباء الساخطين ما يلى : « إن الحياة طعمها مر، وإن الناس فى تعب دائم، وإنه لا وسيلة للهرب من « القرف » إلا الاستسلام للأحلام السعيدة، وكسل لذيذ ».

● **هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل :**

« وفى اليوم نفسه كتب أنيس منصور تحت هذا العنوان : « هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل » يقول :

« هذه عبارة الكاتب الفرنسى « شارل موليه » فى الجزء الثالث من كتابه عن « أدب القرن العشرين والمسيحية » فى ٥٠٠ صفحة، وهو فى هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها، ولكن يجعلها حائطًا كبيراً ترجع إليه الحضارة الغربية فى محنتها الروحية، وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين، فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقا. وإنما كل الكتب التى صدرت هى دراسات خاصة مطوَّله عن كثير من هؤلاء الأدباء .. ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صابراً مجتهداً « شارل موليه ».

والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يُطلق حكمًا دون أن يكون فى يديه وفى جيوبه حيثيات هذا الحكم. وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه، وإنما يصدرها علنًا فى محكمة النقد الأدبى.

والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار العميقة لكل من مالرو، وكافكا، وفركور، وشولوخوف، ومولنيه، وبومبار، وفرانسواز ساجان، ولا ديستاس ريمون. ومن رأى المؤلف أن الفيلسوف السياسى الموسيقار الطيار أندريه مالرو هو الذى وضع أصابعه على الخطر الذى ينتظر الإنسانية، فهو وحده الذى أدرك منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوربية. ومالرو هو الذى نفث روح القلق والأسى فى الأدب الفرنسى والأوربى بعد ذلك.

والغريب فى هذا الجزء الثالث ما قاله المؤلف عن الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان التى صدرت لها قصتان هما: «مرحبا أيها الحزن» .. و«ابتسامة ما» فهو يرى أن ساجان قد سجَّلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل، تلك الروح التى عبَّر عنها سارتر فى أعقاب الحرب الأخيرة. والذى يتذكر ما قال سارتر فى الأعداد الأولى من مجلة «العصور الحديثة» يجده يصرخ ويقول: «لقد انتهت الحرب فى فرنسا الجائعة، ولكن السلام لم يبدأ. إننا نعيش فى محنة ما بين الحربين. لقد كذب هؤلاء الذين قالوا: إن السلام من طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة .. فما هذا الذى نحن فيه؟ إنه الحرب والسلام معًا. إنها المحنة دائمًا»!!

وهذا الذى قاله سارتر فى قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة واليأس والمرارة، وقد عبَّر عنه الشاعر الألمانى «بروشرت» الذى توفى سنة ١٩٤٧، قال فى قصته «أمام الباب»: نحن جيل بلا رابط ولا عمق. عمقنا هو الهاوية، نحن جيل بلا دين ولا راحة. شمسنا ضيقة. حبنا وحشية. وشبابنا بلا شباب!!

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد.

وكان لا بد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعذبة فى طلبة الجامعات والمدارس وأعماق الأديرة. ومن هذه الأديرة، ومن الرهبانية القائمة، خرجت فرانسواز ساجان

لتُعلن فى قصتها: إننى لا أفكر، ولا أستطيع. ولا أطيق أن أبقى وحدى. ولا أريد لأحد أن يكون كذلك. وأريد أن أعيش مثل شىء جديد، ولو كان فيه عذاب. المهم أن يكون جديداً.

وكذلك فعلت «سسيل» بطلة قصة «مرحبًا أيها الحزن». ولم تتردد «دومنيك» طالبة الحقوق وبطلة قصة «ابتسامة ما».

سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذى يتحرك ويتألم ويروح ويجىء، ويحارب ويصرخ فى الظلام بلا حدود ولا قيود يؤمن بها، ولا أمل فى أن يكون لديه أمل». وكفى بهذه الوثائق مستنداً.

● **الحرية الشخصية وآثارها:**

أما الحرية الشخصية التى يدَّعى أنصار الفكر المادى الملحد أنهم ربحوها من وراء «التحرر» من الدين، والإيمان بعقائده الغيبية، وأخلاقه القسرية، فالذى نريد أن نقوله: إن الحرية إذا كان معناها العَبُّ من الشهوات بلا حساب، والانطلاق وراء المُتع الحسية بلا حياء، والتحلل من عرى الفضائل والأخلاق والقيم العليا التى هى أغلى ما ورثته الإنسانية من تاريخها الطويل، فهذه الحرية ليست حينئذ كسبا يُسعى إليه، ولا غُنمًا يُحرص عليه، بل هى خسارة جسيمة على البشرية، وهزيمة منكرة للمعانى الإنسانية التى بها صار الإنسان إنسانًا.

إن القيود التى يفرضها الدين على الإنسان، لا يريد بها عذابه ولا حرمانه، إنما يرد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الصاعدة، وبذلك ينتصر الجزء السماوى فى الإنسان على الجزء الأرضى، ينتصر الروح الشفاف على الجسد الكثيف، ينتصر العقل والإرادة على الشهوة البهيمية أو السبعية.

إن هذا الانتصار على النفس – فضلاً عما له من قيمة ذاتية وخُلُقية – ليمنح النفس لذَّة أعمق وأبقى من لذَّة الانطلاق وراء المُتع الحِسِّية التى لا يدوم التلذذ بها أكثر من لحظات قصار، ثم ينطفئ أوارها فإذا هى رماد.

على أن للقيود التى يفرضها الدين على المرء معنى آخر لا تصلح الحياة

الاجتماعية إلا به، ذلك أن الحياة لا تخلو من قيود توجبها ضرورة التشابك والزحام، وليس فى الإمكان أن يعيش إنسان حرًّا طليقًا من كل قيد، إلا إذا تصورنا – جدلاً – أنه يعيش وحده فى إقليم فسيح كبطل قصة «حى بن يقظان».

إننا نجد السيارات مقيدة بالسير على الجانب الأيمن من الطريق، والتوقف عند كل إشارة حمراء، والدوران فى مناطق معينة وفق تعليمات المرور، وليس هذا انتقامًا من السيارات وأصحابها، وإنما هو تنظيم اقتضاه منع الصدام بين السيَّارات بعضها البعض، وبين الرُكبان والمُشاة، ولو تصورنا طريقًا خاليًا من الناس دائمًا، لأمكن أن يسير السائق فيه بسيارته أنَّىٰ شاء وكيف شاء.

فتدخل الدين هنا فى حرية الفرد، ووضع الإشارات الحمراء أمامه فى بعض المواقف إنما هو تنظيم «لمرور» الإنسان، وسيره فى طريق الحياة إنما هو عمل على منع «الصدام» بينه وبين غيره من الناس، حماية له من الخطر أن يُصيبه هو، أو يُصيب غيره من جراء انطلاقه بلا قيود ولا حدود.

وكل مجتمع يخرج على هذه القيود، أو يُهوِّن من شأنها، فإنه يُعرِّض نفسه للخطر، ويُقرِّب نفسه من حافة الهاوية، وإن كان لا يدرك هذا إلا بعد تجربة وزمن، تتجلى فيه آثار التحلل وأخطاره بارزة للعيان.

ويكفينا أن نقرأ فى الصحف هذه الأخبار:

(أ) أصدرت الجمعية البريطانية لمعالجة الشذوذ الجنسى تقريرًا اليوم قالت فيه: إن مليون رجل فى بريطانيا – وربما أكثر – مصابون بالشذوذ الجنسى.

(الأهرام القاهرية فى ٧/٥/١٩٦٥)

(ب) ٧٢ مليون أمريكى يتناولون الخمور، منهم ٢٠ مليونًا يُكلِّفون الدولة بليونى دولار كل سنة، السبب تغيبهم عن العمل.

(الأهرام القاهرية فى ٣/٥/١٩٦٥)

(جـ) خرجت النساء السويديات فى مظاهرة عامة، تشمل أنحاء السويد،

احتجاجًا على إطلاق الحريات الجنسية فى السويد، اشتركت فى المظاهرات حوالى ١٠٠،٠٠٠ (مائة ألف) امرأة.

(أخبار اليوم القاهرية فى ٢٤/٤/١٩٦٥)

(د) الجريمة فى الولايات المتحدة الأمريكية هى وصمة وسبة فى الجبين. فسجلات الشرطة تزخر بحوادث النشل من المحلات التجارية أثناء التسوق، وخطف حقائب السيدات، وقاعات المحاكم «موحلة» بجرائم الاغتصاب، والقتل والسفك.

والخلاصة أنه بأى مقياس ومن خلال أى زاوية، فالإحصاءات مرعبة وأثرها باد فى الحياة الأمريكية على مختلف مستوياتها الاجتماعية. فكل ولد من بين تسعة يُساق إلى محاكم الأحداث لاقترافه جريمة أو جرائم !! سوى جرائم السير، وذلك قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره!!

وفى كثير من المناطق السكنية المأهولة العامرة يلزم أكثر من نصف السكان منازلهم بعد غروب الشمس خوفًا من تعرضهم لأى اعتداء أثناء تجوالهم أو مرورهم بسيَّاراتهم.

والثُلث ينخلع رعبًا عندما يشاهد وجهًا غير مألوف فى الحى!!

والخُمس مُلِئَ خوفًا واضطرابا حتى إنهم يُفضِّلون النزوح والهروب، ولكن لا يدرون أين يجدون الأمن.

وترتفع كل سنة وبشكل غير عادى، نسبة الحاملين لرخص نقل وحيازة الأسلحة النارية والبنادقِ فى منازلهم وسيَّاراتهم، وكلاب الحراسة الضخمة الشرسة أصبح وجودها فى المنازل أمرًا طبيعيًّا كوجود القطط والجِراء المدلَّلة!!

وفوق هذا كله يزداد الشعور بأن الحكومة، على جميع مستوياتها الولائية والفيدرالية، لا تقدر أو لا تريد أو لن تحمى المواطن العادى!! والحالة فى أنصع صورها تبدو مستحيلة، ولكن الحقيقة مرعبة تمامًا!!

وهذا ما توَّصلت إليه لجنة الرئيس جونسون المشكَّلة لمحاربة الجريمة بعد ١٨ شهراً من الدراسات المتتابعة والمقابلات المتعددة، وبعد زيارات لا نهاية لها للمحاكم والسجون ومراكز الشرطة. وببساطة ذكرت أن قصة الجريمة كاملة فى الولايات المتحدة لا تقدر على وصفها أو أخبارها!! فالإحصاءات التى وضعتها إنما تعكس الجرائم الظاهرة، لأن الجرائم الناجحة بالتعريف هى غير ظاهرة ومغلَّفة بستار كثيف من السرية لا يقدر على حل رموزها وكشفها أحد!!.

ولكن الملاحظات الجانبية لتقرير اللجنة الذى جاء فى ٣٠٠ صفحة، مخيفة للغاية، فالحالة سوداء قاتمة، حتى إنها تكاد تطيح ببناء المجتمع «الجونسونى» العظيم الذى يحلم الرئيس جونسون برؤيته!!.

نسبة الجرائم تشطح رأسيًّا سنة بعد أخرى، ففى عام ١٩٦٦ سجلت أكثر من ٣ ملايين سرقة كبيرة، أى أن واحدا من بين ٧٠ مواطنًا أمريكيًّا هو لص كبير! ويبدو للمواطن العادى أن بداية الحل الوحيد يتطلب:

١ – محو جميع المدن الكبيرة لأنها تفقس سُدس القَتلة فى الولايات المتحدة وثُلث اللصوص والنشَّالين.

٢ – حجز ومنع اختلاط المراهقين من الجنسين لأنهم هم أكبر مجموعة سائبة فى المجتمع خُلُقيًّا وتصرفيًّا.

٣ – تدمير جميع السيَّارات لأن مُعدَّل سرقة السيَّارات يتجاوز أكثر من نصف مليون سيَّارة سنويًّا.

٤ – إزالة الأعمال التجارية والمالية الكبيرة لأنه بعلم هذه المؤسسات أو بدون علمها تشجع الأعمال المالية الاحتيالية، وتُقدَم فُرصًا مغرية للاستثمارات المالية العائدة لملوك الاختلاس والسرقة!!

(الشهاب اللُّبنانية [١] عن مجلة «تايم» الأمريكية فى ٢٤ آذار سنة ١٩٦٧).

---

(١) العدد ١٦ من السنة الأولى فى ١٥/٩/١٩٦٧.

● **العمل والإنتاج للحياة:**

أما العمل ، والإنتاج للحياة، وترقية الجانب المادى منها، والسعى لتحقيق حياة طيبة للبشر فى الأرض، والزعم بأن الإيمان بالله والآخرة يعوق ذلك أو يؤخره – فنحيل الرد عليه، إلى ما ذكرناه من قبل عن «الإيمان والإنتاج».

● **علم النفس لا يُغنى عن الإيمان:**

ولا بد أن نعرض هنا لشبهة تحيك فى بعض الصدور:

إن بعض الناس قد يُخيَّل إليه أن علم النفس الحديث، بمكتشفاته وإمكاناته وعياداته النفسية، وكشفه عن دخائل النفس ومخبآتها وبواسطة ما يُسمى: «التحليل النفسى» يستطيع أن يُعالج الأنفس المريضة وكل العُقد المستعصية، ويقوم بالدور الذى كان يقوم به الدين فى الماضى، بطريقة علمية مأمونة، مستمدة من واقع الأرض لا من غيبيات السماء! ولن أرد على هذه الدعوى بنفسى، ولن أدع ردها لأحد من علماء الدين ودُعاته المتحمسين له فربما يُقال: إنها بضاعتهم، ومن شأن التاجر أن يروج لبضاعته.

ولكن أدع الرد لأقلام كُتَّاب «مدنيين» ليسوا «مشايخ» ولا أحباراً ولا رهباناً، إنما هم قوم يستندون إلى الواقع، ويحكمون بمنطق التجربة، فلا عذر بعد ذلك للواقعيين، ولا حجة للتجريبيين.

فلنستمع أولاً إلى الصحفى المصرى المعروف محمد زكى عبد القادر، يناقش هذا الموضوع فى إحدى «يومياته» بجريدة «الأخبار القاهرية» فيقول:

«تلقيتُ هذا الخطاب: استمعتُ إلى محاضرتكم فى كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية عن «مشكلات الشباب الجامعى»، وقد ذكرتم أننا حتى الآن لا نعرف شيئًا محدداً عن النفس الإنسانية وأسرارها .. وأن علم النفس ومدارسه والعيادات النفسية لم تزد روَّادها إلا تعقيداً، وأشرتم إلى أن العيادات النفسية كثرت فى أمريكا كثرة غير عادية، وأنها مع ذلك لم تؤد إلى النتائج التى كان يرجوها من يلجأون إليها، بل إن الكثيرين خرجوا منها وقد ازدادت أمراضهم النفسية سوءاً.

إنى أرى أنكم بذلك حطمتم علمًا حيويًّا ناجحًا إلى حد ما، فبفضله وفضل التحليل النفسى والعالم «فرويد» والتنويم المغناطيسى استطاع العلماء أن يصلوا إلى باطن الإنسان ومعرفة أمراضه وعُقَده وشُفِىَ الكثيرون».

هذا هو الخطاب الذى بعث به طالب بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

ويُجيب الأستاذ عن هذا الخطاب فيقول:

«عرضتُ لهذا الموضوع، وأنا أتحدث عن نطاق الإيمان المستند إلى وجود قوة عُليا مسيطرة، وقلتُ: إن الإيمان بالله ضرورة يدعو إليها العلم وليست الأديان وحدها. وقلتُ: إن العلم لم يستطع - ولن يستطيع - أن يحل المشكلات التى يعانيها الإنسان فى هذه الدنيا، فهناك حوادث مفاجئة ومآس تقع دون أن تكون لها أسباب مفهومة، ونحن نسندها عادة إلى القَدَر وإرادة الله .. فلو لم نكن على درجة من الإيمان، ما استطعنا أن نتعزى عنها أو نحتملها .. الأم التى تفقد أولادها .. كارثة الطيران التى تودى بعائلة بأسرها أو تقتل الأب والأم وتترك الأطفال، أو تقتل الأطفال وتترك الأم والأب .. حوادث الغرق والانهيار والأعاصير والزلازل والبراكين .. غضب الطبيعة على أية صورة وقع هذا الغضب .. الأمراض التى لا شفاء لها .. المتاعب النفسية والعقلية والقلبية والجسدية التى يعجز الإنسان عن إيجاد وسيلة للبرء منها .. وعشرات المصابين فى المستشفيات والبيوت ومئات المشوَّهين بالخلقة هنا وهناك .. وكل ما نراه حولنا من مآس يعجز العلم عن إيجاد حل لها، ويعجز الإنسان - بكل ما أوتى من براعة وقوة وسلطان - عن التخلص منها .. كل هذه المتاعب والآلام كيف يتحملها المصابون بها؟ وكيف يتحملها المحيطون بهم إن لم يستشعروا الإيمان بالله، ويتوجهوا له أن ينقذهم مما عجز الإنسان عن إنقاذهم منه؟ كيف يتحملونها إن لم يؤمنوا أن هناك قُوَى نجهل حكمتها؟ وأن هناك فى الدنيا أشياء وتصرفات لا يمكن أن نعيها بما أوتينا من علوم ومقاييس؟ فلا وسيلة لنا أمامها إلا أن نُسلِّم بوجودها، ونُسلِّم فى الوقت نفسه بقصورنا عن إدراك كُنهها؟

وليس معنى ذلك أن ننكر العلم ومجاله، بل معناه أن نؤمن بالعلم فى أوسع مجالاته، وأن نترك له الحرية يطرق ما يشاء، ويبحث عما يشاء، فإذا وُفِّقَ فنحن مؤمنون بما بلغه، وإذا لم يُوَّفق فنحن مؤمنون بالقوة العليا، إلى أن يُتاح للعلم أن يحل ألغاز المشكلات التى تُحيرنا.

إن العلم حتى الآن، بكل ما له من تاريخ ناصع، وانتصارات عظيمة رائعة مجيدة، لم يستطع أن يعرف: كيف تعمل أعضاء الإنسان كلها، وكيف تتصرف وتنشأ وتمرض وتموت؟؟ لقد وُفِّقَ فى علاج كثير من الأمراض، ولكن لم يُوفَّق فى علاج كثير آخر منها .. وُفِّق فى معرفة بعض وظائف الأعضاء، ولكنه لم يُوفَّق فى معرفة سائر الوظائف .. وُفِّق فى تشخيص بعض الأمراض، ولكنه عجز عن اقتحام اللُّغز الأكبر: هل عرف كيف وُجِدَ الإنسان؟

ولماذا وُجدَ؟ وكيف يموت؟ .. ولماذا يموت؟. وماذا بعد الموت؟ .. وماذا قبل الحياة؟!

كل هذه ميادين لا تزال بكرًا، وعلى الرغم من كل الجهود التى بُذِلَت، وعلى الرغم من كل الادعاءات المستندة إلى فهم، والمستندة إلى تدجيل وسوء فهم .. كل هذه الميادين لا تزال – وستظل إلى ما شاء الله – مجال الإيمان الذى لا يستطيع العلم أن يقتحم منطقته.

ولنأخذ نفس الإنسان، ذلك الجوهر الذى يسعده ويشقيه، يمرضه ويشفيه، يجعله مرحًا كأن الدنيا بين يديه، وفجأة تضيق وكأنها ثقب إبرة .. هذه النفس التى تنحرف وتعتدل، وتزكو وتضمر .. تكون عبقرية، كأنما يُوحَى إليها من السماء، وتكون شريرة كأنها لهب من الجحيم .. هذه النفس هل عرفناها؟..هل حدَّدناها؟ هل صوَّرنا أمراضها واهتدينا إلى علاجها؟ إن علم النفس بكل الجهود المضنية التى بذلها لا يزال يقف عند الشاطئ، ولا تزال نظرياته مجالاً للاختلاف والشك، ولا تزال تتطوَّر جيلاً بعد جيل، وطرائق بعد طرائق..

كان «فرويد» أستاذ هذه المدرسة، وتبعه كثيرون، منهم من سار على

منهجه، ومنهم من عارضه، ومنهم من اختلف وإياه فى الطريق والنهج .. تُرى هل وُفِّقَ علم النفس حتى اليوم، إلى معرفة النفس؟.. قد يكون وُفِّقَ إلى معرفة بعض مظاهرها وانفعالاتها .. قد يكون وُفِّقَ إلى ردها إلى أسباب تصدق أو تكذب، ولكنه لا يزال جاهلاً هذه النفس.

وقد تعلق الناس بعلم النفس، لأنه علم الحياة، وابتهجوا به وانصرفوا إليه، ظانين أنه سينقذهم من الانحرافات والاندفاعات. من الأمراض العصبية والعقلية، ولكن هل حقق كل ما علَّقوه عليه من آمال؟.. هل حقق بعض ما علَّقوه عليه من آمال؟.. الجواب – كما قلتُ فى المحاضرة – عند العيادات النفسية الكثيرة المنبثة فى أمريكا بعدد أوفر مما فى غيرها!! فى هذه العيادات مآس لجأ أصحابها إلى المُحلِّلين النفسيين يلتمسون عندهم الشفاء .. فهل نجحوا؟.. هل شُفِىَ اليائسون من الحياة، لأن نفوسهم مضطربة قلقة مُعقَدة؟ إن الإحصائيات لا تستطيع أن تؤكد – وحتى فى الحالات التى شُفِىَ فيها المريض – أن التحليل النفسى – والتحليل النفسى وحده – كان السبب فى الشفاء!!

وفى أمريكا بالذات تكثر الأمراض النفسية والعقلية بصورة لا مثيل لها (١). وفى أمريكا هذه توجد عيادات نفسية لا حصر له، وكل ما يقوله المُحلِّلون النفسيون. أو أكثر ما يقولونه لروَّاد هذه العيادات إذا كانوا شبانًا أو فتيات: أن اذهبوا وتصرَّفوا كما تشاؤون!! إن أمراضكم النفسية سببها الكبت والخوف من التقاليد والأمراض والعار!! فماذا كانت النتيجة؟ .. كانت هذه الانحرافات التى لا حصر لها، وهذا التحليل الذى دمَّرَ – أو كاد – الحياة العائلية، ثم لم يمنح أصحابه السعادة التى كانوا ينشدونها!

هذا هو ما قلته ... وهو لا يتضمن إنكاراً لفضل علم النفس، ولكنه يتضمن أن علم النفس لم يُوفَّق، حتى الآن، إلى كشف تلك المنطقة الهائلة

---

(١) راجع الإحصائيات التى ذكرها «ألكسيس كاريل»، ونقلناها عنه فى الصفحات الفائتة.

الرائعة، الصغيرة الكبيرة، منطقة النفس وأن كل ما بلغه تحليل لبعض الظواهر، وتعليل لبعض التصرفات، فقد يكون صادقًا وقد لا يكون.

إن ما نعلمه عن الحياة وأسرارها، بفضل كشوف العلوم وتفكير المفكرين لا يزال ضئيلا جدًّا إذا قيس إلى ما لا نعلمه ولا نستطيع تعريفه ولا تعليله.

هذا النطاق الواسع مما لا نعلم هو مجال الإيمان بالله .. وهذا النطاق الضيق الذى علمناه هو مجال الإيمان بالعلم، ولا تعارض بين الاثنين، بل بينهما التقارب والتكامل.

أمرنا الله أن نسعى ونعرف ونبحث، وبسط أمامنا آفاق الدنيا لنذهب بها كيف نشاء، وأطلق فينا شرارة من لدن ذاته العليا، هى العقل .. هذا العقل يجب أن يرود كل المجاهل، ويحاول كشف الألغاز وتيسير الحياة وتوجيهها وجعلها ممكنة ومحتملة، وإيماننا به إيمان بذات الله العُليا .. ولكن هذا العقل قاصر، وكل ما ينتجه مهما يكن لن يبلغ حدود الشمول فالشمول من اختصاص الذات العُليا.

إيمان بالعلم هو إيمان بالعقل الذى هو شرارة إلهية يجب أن تنطلق من غير حدود، وإيمان بالله هو إيمان بالمصدر والوحى والكل والشمول والأزل والأبد ... وكل مَن يقول بغير هذا يدَّعى، ولا يعطى دليلاً على ما يدَّعى.

علم النفس كغيره من العلوم مجال للاحترام والتشجيع، ولكن أن أعتمد عليه لكى يكشف لى كل غامض هو اعتماد من غير سند، لا من حقيقة ولا مما وصل إليه، ولا مما ننتظر أن يصل إليه». اهـ

● **الطب النفسى فى موكب الإيمان:**

على أن كثيرا من الأطباء النفسيين قد ثبت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخرة من أعظم الأدوية الفعالة فى القضاء على الأمراض النفسية، وكثير منهم استعان بالدين فى علاج مرضاهم فنجحوا أعظم نجاح، وسجَّلوا ذلك فى بحوث ومقالات وكتب نشروها على الناس.

ولعل أبرز مَثَل يحضرنى الآن هو الطبيب النفسى الأمريكى الشهير الدكتور

« هنرى لنك » الذى كفر يومًا بالدين الذى ورثه، وخلع معتقداته القديمة كما يخلع المرء نعله، وعاش عدة سنوات ملحداً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فعل ذلك باسم العلم الذى رآه فى ذلك الوقت يتعارض مع الدين، أو على الأقل، لا يُثبته ولا يؤيده. فالعلم – حسب قوله – لا يستطيع أن يُثبت وجود الله، كما لا يستطيع أن يُثبت عدم وجوده، وبناء على ذلك لا يسع اللَّبيب إلا أن يقول: « أنا لا أعرف » أى يكون شاكا أو ملحداً. هذا الرجل الذى جرفه العلم بعيداً عن الدين، عاد عن طريق العلم مرة أخرى إلى الدين، وسجَّل ذلك فى كتاب نشره على الناس وطُبِعَ إلى ما قبل سنوات فى أمريكا ٤٧ مرة، وقد سمى كتابه « العودة إلى الإيمان ».

ولنستمع إليه نفسه يحدثنا عن أسباب عودته وظروفها وكيفيتها فيقول:

« وهأنذا أسجل أن عودتى إلى حظيرة الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التى اكتسحت العالم وقتًا ما، ولو أنى أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لى. وما كان تقدم سنى أو اقترابى من الشيخوخة – هذان الشبحان اللَّذان غالبًا ما يؤثران على تفكير المرء – هما السبب فى عودتى إلى حظيرة الإيمان، فإنى ما زلتُ فى مستهل الخامسة والأربعين وهى سن تُعتبر مبكرة نوعًا ما، وما زلتُ بحمد الله موفور الصحة، قوى البنية، قادراً على الانحناء عشر مرات متواليات، وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهى من طعام دون خشية أية عواقب.

فعودتى إلى الإيمان لا ترجع إلى تدهور صحتى، ولا إلى ما عساه أن أكون قاسيته من الآلام التى تؤثر على عقلية المريض، فتجرفه فى تيار التمنى للتخلص من هذه الحياة والإخلاد لحياة أخرى، كلها راحة واطمئنان. كما أنى أقرر أنها لم تأت فى أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها، بل بالعكس، جاءت بعد أن قضيتُ ستة عشر عامًا فى حياة زوجية هانئة، فأنا رجل محظوظ لى ثلاثة أطفال هم مصدر سعادتى وغبطتى، وأحرزتُ من النجاح أكثر مما كنتُ أصبو إليه. أما إيرادى فيربو على حاجتى ومطالب أسرتى.

ومن هذا ترى أن هُدَايَ لم تصطحبه أية حبكة روائية أو إثارة ما لعواطفى. فلم أمر بتجربة قاسية، ولم تحرك إحساسى كارثة، كما لم يبهر بصرى اكتشاف جديد قد يُحدث هذا التبدل الذى أسجله الآن.

لقد أتانى الهُدَى وئيداً حتى إننى لم أتبينه فى نفسى خلال مراحله الأولى وما كان مرجع هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة التى صادفتنى فى أثناء ممارستى لمهنتى كطبيب نفسانى» (١).

فهذا الرجل الطبيب العالم يُعلن فى ثقة ووضوح أنه لم يعد إلى حظيرة المؤمنين نتيجة لتأثر وقتى، أو انفعال عارض، ولم يعد إلى الإيمان، بناء على نظريات نفسية اعتنقها، أو آراء فلسفية تبنَّاها، فإن النظريات والآراء قابلة للصدق والكذب، ومحتملة للصواب والخطأ، إنما عاد الرجل إلى الإيمان، بناء على تجارب مارسها بنفسه، وعلى ملاحظات متكررة شاهدها بعين رأسه، وهذه التجارب والملاحظات هى أساس علم النفس التجريبى الذى يدرس الظواهر النفسية دراسة تقوم على القياس والاختبار والإحصاء والأرقام، والتى بها أصبحت الدراسات النفسية «علماً» ولم تعد «فلسفة».

وها هو يوضِّح هذا المعنى ويؤكد، فيقول:

«إن علم النفس الحديث القائم على أساس الرياضيات والأرقام، والذى يطبَّق على البشر لا على الورق، هو الذى قلب آرائى ومبادئى رأساً على عقب دون أن أشعر بالتطور الذى حَلَّ بى مَن مدة طويلة.

وهنا لا يجوز الخلط بين هذا العلم، وبين التحليل النفسى، الذى أدى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن تماماً الجزم بصحتها كلها، كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل والباطل واللبيدو (٢) وعقدة النقص والتربية التقدمية .. إلخ.

---

(١) العودة إلى الإيمان ص ١٤ - ١٥.

(٢) «اللبيدو» هى الطاقة الحيوية فى الإنسان قصد بها «فرويد» الحرمان الجنسى أو الجانب العقلى للغريزة الجنسية، ولكن «يونج» توسع فى معنى التعبير، وأطلقه بصفة عامة على الحيوية بأسرها (المترجم).

وما أقل ما يعرفه الناس عن علم النفس العلمى الذى بلغت دقته الدرجة التى وصلت إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان. وبرغم أنهم سمعوا عن اختبار الذكاء أو مقياس الذكاء، إلا أن القليلين منهم هم الذين يدركون أن هناك أكثر من ١٠٫٠٠٠ اختبار نفسى أجراها رجال علم النفس، وأن معظم هذه الاختبارات تُستخدم الآن فى الحياة العامة. والقليلون أيضا يعلمون أن مؤسسة «روكفلر» قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولار لاكتشاف اختبارات التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس. وقد أمضى أساتذة علم النفس فى جامعة «مينيسوتا» خمس سنوات فى بحث متواصل، حتى اهتدوا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاية المرء الآلية، واستعداده الطبيعى لاستخدام الأجهزة الآلية، أنفقت فيها مائة ألف دولار، تبرع بها مجمع الأبحاث الوطنى وغيره من المؤسسات.

ويكاد الجمهور الذى ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئًا كذلك عن دقة اختبار «سيشور» لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية فى الإنسان، وقد وضعه بعد بحث مجهد دام خمسة وعشرين عامًا، بمعاونة عدد من رجال علم النفس المساعدين. وقليلون أيضًا هم الذين سمعوا عن الجهاد العنيف الذى بذله أمثال: رودث وثيرستون، وألبروت وولز وروث وبرنرويتر، وغيرهم فى مجال الشخصية وحدها.

وهكذا ظهر تحسن ملحوظ فى القدرة على تفهم الشخصية، وترقيتها والتقدم بها، بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر واستخدامها فى علاج المرضى بالعيادات الطبية. فقد أجرى اختبار قياس الشخصية وحده على حوالى نصف مليون نفس عام ١٩٣٥ فى عيادات الولايات المتحدة ومدارسها.

هذا الفرع من علم النفس هو الذى أدت مكتشفاته إلى تبديل معتقداتى الدينية، وهى – كما سبق أن أوضحتُ – تختلف عن تلك النظريات الجذَّابة الشائعة بين الناس، كما أنى قد قدمتُ إلى هذا النوع من علم النفس العلمى الكثير من المعونة فحازت القبول. وأما مكتشفاتى التى سيرد ذكرها فيما بعد، فلم تكن ممكنة التحقيق بدون تلك التجارب العلمية التى قام بها غيرى من العلماء

النفسيين، وأما كون النتائج المستخلصة من هذه الدراسات تؤيد بل تطابق بعض المعتقدات الدينية الأساسية، فهذا ما سيلمسه الجميع حتماً بمرور الزمن.

ولقد طُبقَت مكتشفات علم النفس تطبيقًا واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختبارا نفسيا على ١٥٫٣٢١ نفسا من الرجال والنساء المتعطلين فى فترة لا تتجاوز ستة عشر شهراً. وفى ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة والتدريب المطلوب له حتى يصير لائقًا لهذه المهنة.

وفى كثير من الأحيان كانت النصيحة تُقدَم استناداً على المشكلات والعُقد المكتشفة فى شخصية كل منهم، والتى تكون عادة السبب الأساسى فى تعطلهم. وقد تكلفت هذه العملية أكثر من مائتى ألف دولار، تبرعت بمعظمها مؤسسة «كارنيجى»، وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك، ولما كنتُ قد عُينتُ مستشاراً خاصًّا فى هذه العملية، ونيط بى وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ممن جرى عليهم الاختبار، وقد أجريتُ عليهم ما قدره ٢٢٦و٧٣ اختباراً نفسيًّا، وسجلتُ تقريراً شخصيًّا شاملاً لكل فرد منهم. وفى هذا الوقت بالذات بدأت إدراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، ووجدتُ من نفسى استعداداً لمضاهاة تجاربى السابقة على مرضاى، بالنتائج الباهرة التى أتت به تلك الاختبارات العظيمة التى توليتُ الإشراف عليها، وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة، ولو أنها لم تُنشر فى التقرير النهائى. وهذه النتيجة هى: «إن كل مَن يعتنق دينًا أو يتردد على دار للعبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة».

وعلى ذلك لم تكن رجعتى إلى الدين رجعة الضال الذى اهتدى إلى دين صائب، أعنى أن هذه الرجعة لم تصاحب شعوراً متوقداً أو نعرة عاطفية، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ! ولا أظن أن كافة المتدينين يقرون هذه الحقيقة، حتى أنا نفسى لا أعتقد أنها الطريقة المُثلى، ففكرتى عن الدين تتضمن بضع معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينية معينة، وتنبذ بعض الآراء التى تراها مذاهب معينة جوهرية. إذن ... فما هو الدين؟.

الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة، هذه القوة هى قوة الله، مدبر الكون، خالق السموات، وهو الاقتناع بالدستور الخُلُقى الإلهى الذى سَنَّه الله فى كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز تُغترف منه الحقائق الدينية، وهى أسمى فى مرماها من العلوم كلها مجتمعة» (١).

والحق أن هذا الرجل - ككثيرين غيره - حين كفر وألحد، لم يكفر بدين الله الحق، وإنما كفر بالتحريفات التى شوَّهت الدين ومسخته، إنما كفر بدين الكنيسة بما أضيف إليه، وما ابتُدعَ فيه .. وحين آمن وعاد إلى الدين، لم يعد إلى الدين الذى أنكره من قبل، بل عاد إلى دين ترضى عنه فطرته وعقله، وإن لم ترض عنه مذاهب كنسية معينة، وهو ينبذ معتقدات تراها بعض المذاهب جوهرية، ولو أتيح للرجل أن يعرف الإسلام على بصيرة لأيقن أن الدين الذى اهتدى إليه وأعلن عودته إلى حظيرته، إنما هو فى الواقع دين الإسلام، دين الفطرة والعقل، دين الحياة والقوة، فهذا الدين هو سلاح الأقوياء وليس ملجأ الضعفاء، كما يقول الدكتور فى فقرة من كتابه:

«لقد أدَّت دراستى العميقة للأفراد إلى مشاهدتى ذلك القبس المضىء من نور الهداية. وسواء أكان أمل الإنسان هو الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الاقتصادى أو الاطمئنان الاجتماعى أو السعادة الزوجية، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالى حربًا لا هوادة فيها تُوقِدُ جذوتها عدة من المُثل العليا العملية الصادقة.

فالدين الذى أتكلم عنه ليس ملجأ الضعفاء، ولكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التى تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها، لا فريستها وعبدها الخانع» (٢).

وليس الدكتور «هنرى لنك» وحده الذى عاد إلى الإيمان عن طريق التجربة، والعلم، فهناك غيره كثيرون.

---

(١) العودة إلى الإيمان ص ٢٣ - ٢٦.

(٢) العودة إلى الإيمان ص ٢٨ - ٢٩.

لقد حدثنا الكاتب الأمريكى المشهور «ديل كارنيجى» مؤلف «دع القلق وابدأ الحياة» وغيره من الكتب – أن موجة الشك والقلق انتابت إيمانه فترة من حياته، وأوشك أن يكون جاحداً ملحداً، يرى أن الحياة تسير بلا غاية، وإلى غير مقصد، ويحسب أن البشر مجرَّدون من الأهداف السامية مثل: حيوانات «الديناصور» العملاقة التى كانت تجوب الأرض منذ مائتى مليون سنة، وأن النوع الإنسانى مصيره إلى انقراض يُشبه انقراض حيوان الديناصور.

ثم هبَّت على الرجل نفحة إيمان جعلته يشعر أن الحياة متاهة مضلة وصحراء قاحلة مهلكة بغير واحة الإيمان.

ومما قاله فى هذا الصدد: «إننى يهمنى الآن ما يُسديه إلىَّ الدين من النِعَمِ، تمامًا كما تهمنى النِعَمُ التى تُسديها إلينا الكهرباء، والغذاء الجيد، والماء النقى، فهذه تُعيننا على أن نحيا حياة رغدة، ولكن الدين يُسدى إلىَّ أكثر من هذا، إنه يمدنى بالمتعة الروحية، أو هو يمدنى – على حد قول «وليم جيمس» بدافع قوى لمواصلة الحياة .. الحياة الحافلة، الرحبة، السعيدة، الراضية. إنه يمدنى بالإيمان والأمل والشجاعة، ويُقصى عنى المخاوف والاكتئاب والقلق ويزوِّدنى بأهداف وغايات فى الحياة، ويُفسح أمامى آفاق السعادة، ويُعيننى على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا».

لقد كان الفيلسوف «فرانسيس بيكون» على حق حين قال: «إن قليلاً من الفسلفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد، ولكن التعمق فى الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين».

إن السطحيين وأنصاف المتفلسفين، والمغرورين بقشور العلم والفلسفة هم الذين يتهورون فيتورَّطون فى اقتراف الخطيئة الكبرى: خطيئة الثورة على الدين، والتمرد على الله، بل الجحود لوجوده سبحانه. ومنهم من يفعل ذلك تظاهراً بالتحرر وطلبًا للشُّهرة. ومنهم من يفعله تبريراً لغرقه فى الشهوات، وجريه وراء المُتع والمَلَّذات، فهو يريد أن يهدم الدين من أساسه، ليُسوِّغ لنفسه السقوط والانحلال، بلا تحرج ولا حياء من الناس، ولاحساب من ضمير.

أما الراسخون فى العلم، المتعمقون فى الفكر، فهم أعقل من أن يقطعوا أنفسهم عن هذا النور الذى لا يخبو، والزاد الذى لا ينفد، نور الإيمان، وزاد اليقين.

ولا غَرو أن رأينا أعلام المشتغلين بالحياة النفسية، فلسفة ونظراً، أو علاجاً وطبًّا، يُعلنون اعتصامهم بالعُروة الوُثقى، عُروة الدين، ويدعون الناس إلى ذلك بصوت جهير.

قال «وليم جيمس» العالِم النفسى الشهير بمذهبه فى المنفعة العملية:

«إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافة - سبحانه وتعالى - تحققت كل أمنياتنا وآمالنا».

وقال: «الإيمان من القوى التى لا بد من توافرها، لمعاونة المرء على العيش، وفقدنا نذير بالعجز عن معاناة الحياة».

وقال حين كان أستاذا للفلسفة بجامعة هارفارد: «إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان».

ويُعقِّب على ذلك «كارنيجى» بقوله: «ولا يتحتم أن تتعلم فى هارفارد لتُدرك هذه الحقيقة، فقد أدركها والدي فى بيتهما المتواضع، فما استطاعت الفياضانات ولا الديون، ولا النوازل أن تنال من روحهما القوية، المستبشرة الظافرة، ويسعنى الآن أن أتسمع فيتردد فى أذنى صوت أمى تترنم بالأغنية التالية، بينما هى تدير شؤون المنزل:

الأمان، الأمان.. يا لروعة الأمان
إذ يسكبه فى نفوسنا الرحيم الرحمن
إليك اللهم أدعو أن تحيطنى بالأمان
فياضا غامراً يملأ القلب والجنان...»

ويقول «ديل كارنيجى» أيضًا:

«إنى لأذكر تلك الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة، فإن أحدث العلوم – وهو الطب النفسى – يُبشر بمبادئ الدين. لماذا؟

«لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى، والاستمساك بالدين والصلاة، كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبى، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى نشكوها .. نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك، وقد قال قائلهم الدكتور«أ.أ.بريل»: «إن المرء المتدين حقًّا لا يعانى مرضًا نفسيا قط».

«وعندى أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظًا من نوع جديد. فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توقيًا لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة، وإنما يوصوننا بالدين توقيًا للجحيم المنصوب فى هذه الحياة الدنيا .. جحيم قرحات المعدة، والانهيار العصبى، والجنون .. إلخ.

يقول الدكتور «كارل يونج» – أعظم الأطباء النفسيين فى هذا الجيل بأمريكا – فى كتابه «الرجل العصرى يبحث عن روح»:

«استشارنى فى خلال الأعوال الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجتُ مئات من المرضى، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر – أى الخامسة والثلاثين أو نحوها – لا ترجع فى أساسها إلى افتقادهم الإيمان، وخروجهم على تعاليم الدين .. ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض، لأنه حرم سكينة النفس التى يجلبها الدين – أى دين – ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة»:

لماذا يجلب الإيمان بالله، والاعتماد عليه – سبحانه وتعالى – الأمان والسلام والاطمئنان؟.

سأدع «وليم جيمس» يُجيب على هذا السؤال:

«إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تُعَكِّر قط هدوء القاع العميق،

ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذى عمق إيمانه بالله خليق بألا تُعَكِّر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة، فالرجل المتدين حقًّا عصىٌّ على القلق. محتفظ أبدًا باتزانه، مستعد دائما لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف» (١).

ونشرت جريدة الجمهورية يوم السبت ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٦٢، تحت عنوان: «العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية»:

«عزاء وسلوان لأولئك الذين تشبثوا بدينهم. ولم يتزعزع إيمانهم فى أحلك لحظات المدنية وأنصعها، أقصد تلك اللحظات التى يتشدق فيها دعاة النظريات العتيدة، وفى مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء لـ «داروين» ويتشدقون فيها بأن الدين بدعة، وبأن الإنسان يقف وحده فى هذا الكون، كما زعم «جوليان هاكسلى».

إن علماء الأمراض العقلية. لا يجدون اليوم سلاحًا أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله.. والتطلع إلى رحمة السماء.. والتشبث بالرعاية الإلهية، والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه!!

لقد بدأت التجربة فى مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبى الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية.

بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ، والعقاقير المسكنة والمهدئة للأعصاب.

وكانت النتيجة رائعة.. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم.. بل فقدوا الأمل فيه، انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء.. أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يُسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم، ويذرفون الدمع ندمًا، وكلهم أمل فى رحمة السماء ومغفرة الله.

واستسلم العلماء، ورفعوا أيديهم إلى السماء، يعترفون بضعفهم ويُعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان. وليس أبدا إلى الإلحاد».

---

(١) عن كتاب «دع القلق وابدأ الحياة».

ولم يقف الأمر عند الأطباء النفسيين، بل تجاوزه إلى أطباء الأجسام أنفسهم، يرون أن الإيمان بالله ضرورة لنجاح علاج كثير من الأمراض الجسمية والعصبية، وخاصة إذا اجتمع إيمان الطبيب وإيمان المريض، فذلك أجدر أن يُقصر مدة العلاج ويُقرب حلول العافية.

يقول الدكتور «بول أرنست أدولف» – أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونس وعضو جمعية الجرَّاحين الأمريكيين –: «لقد أيقنتُ أن العلاج الحقيقي لا بد أن يشمل الروح والجسم معا في وقت واحد، وأدركتُ أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية، إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمتُ كلتا الحالتين على أساس قويم، بهذه الطريقة وحدها، استطعتُ أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه .. ولقد وجدتُ بعد تدبر عميق، أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله. هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة»[1].

«وقد وجدتُ أثناء ممارستي للطب، أن تسلحي بالنواحي الروحية، إلى جانب إلمامي بالمادة الطبية يُمكناني من معالجة جميع الأمراض علاجًا يتسم بالبركة الحقيقية، أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط، فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج، بل قد لا تبلغ هذا القدر.

فما هي الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية؟

إن من الأسباب الرئيسية لهذه الأمراض: الشعور بالإثم والخشية والحقد والخوف والقلق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم. ومما يؤسف له أن كثيراً من المشتغلين بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض، ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات، لأنهم لا يلجأون في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى».

فإذا كان بعض المثقفين في أوطاننا لا يصغون إلا لصوت يجيئهم من الغرب،

---

(١) من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ص ١٣٨ – ١٣٩.

فإن عليهم أن يستمعوا وينصتوا لتلك الصيحات المخلصة، التى أطلقها أناس ليسوا بالأدعياء المتطفلين على العلم، ولا بالسطحيين المحكومين بالعاطفة، ولا بالخياليين المتعلقين بالأحلام، الذين يسبحون فى غير ماء، إنما هم «علماء» متعمقون يحكمون منطق العلم العصرى وحده، القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء.

والعجب أن تصدر هذه الصيحات من بلد بلغ القمة فى الارتقاء العلمى والغنى المادى، والرخاء الاقتصادى، واستطاع أن يضع أقدام أبنائه على سطح القمر! بلد يؤمن بالمنافع العملية، والحياة الواقعية، لا بالمدن الفاضلة والمُثل الأفلاطونية. ولكن أعلامه – كما رأينا – ينادون بضرورة التشبث بالإيمان، وقاية وعلاجًا، وزادًا وسلاحًا، وهداية ونورا، وصاحبا ودليلاً.

فلنركل بقوة وإلى الأبد تلك الأكذوبة الكبرى، التى يرددها هنا أناس لا يمتازون إلا بصفاقة الوجوه وعمى القلوب: أن العلم يُناقض الإيمان، أو يستغنى عن الإيمان! هيهات هيهات لما يَدَّعون.

* * *

الخاتمـــــة

أحسب بعد ما عرضناه فى هذا الكتاب – أن الطريق، قد اتضحت وجهته واستبانت معالمه.

إنه طريق واحد يتعين على أمتنا أن تسلكه، ولا خيار لها فى ذلك. إنه طريق الإيمان. إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف، وما نصبو إليه من آمال.

إن كنا نريد الآخرة. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريد الدنيا .. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريدهما معًا .. فطريقهما هو الإيمان.

أما الآخرة فلها حديث فى غير هذا الموضع.

وأما الدنيا وآمالنا فيها، وغاياتنا منها. وسعادتنا بها، فقد تبيَّن لنا – من خلال هذه الدراسة – أن الإيمان الحق هو سبيلها، لا سبيل غيره.

إن كنا نريد السعادة الشخصية، فلا سعادة بغير سكينة النفس، ولا سكينة بغير إيمان.

وإن كنا نريد الحياة النظيفة، فلا نظافة بغير استقامة، ولا استقامة بغير إيمان.

وإن كنا نريد التماسك الاجتماعى، فلا تماسك بغير إخاء، ولا إخاء بغير إيمان.

وإن كنا نريد التماسك العسكرى على عدونا الجاثم على صدورنا. فلا نصر بغير أبطال، ولا بطولة بغير تضحية، ولا تضحية بغير إيمان.

وإن كنا نريد الرخاء الاقتصادى، فلا رخاء بغير إنتاج، ولا إنتاج بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير إيمان.

وإن كنا نريد التقدم «التكنولوجى» فلا تقدم بغير إخلاص، ولا إخلاص بغير هدف، ولا هدف للحياة بغير إيمان.

وإن كنا نريد الإصلاح الجذرى لحياتنا، فلا إصلاح إلا بتغيير نفسى، ولا تغيير إلا بتصميم، ولا تصميم إلا بالإيمان.

وإن كنا نريد الحكم العادل، فلا عدل بغير قانون، ولا فائدة فى قانون بغير ضمائر، ولا أمل فى ضمائر بغير إيمان.

الريمان هو قوة الخُلُق، وخُلُق القوة، وروح الحياة وحياة الروح، وسر العالم وعالم الأسرار، وجمال الدنيا ودنيا الجمال، ونور الطريق وطريق النور.

الإيمان هو واحة المسافر، ونجم الملاَّح، ودليل الحيران، وعدة المحارب، ورفيق الغريب، وأنيس المستوحش، ولجام القوى، وقوة الضعيف.

الإيمان هو مصنع البطولات، ومحقق المعجزات، ومفتاح المغاليق، ومنارة الهُدى فى كل طريق.

الإيمان – فى كلمة واحدة – ضرورة للحياة الإنسانية: ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويرقى، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويبقى.

والإيمان الذى عنيته هو إيمان الإسلام، فى شموله وتوازنه وعمقه وإيجابياته، إيمان القرآن والسنة، إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان: معرفة ونية واعتقادا وعملاً. لا الإيمان العقلى الخالص الذى أراده المتكلمون، ولا الروحى المحض الذى أراده المتصوِّفون، ولا الشكلى الجاف الذى عَنِىَ به المتفقهون الجامدون.

هذا الإيمان ليس مجرد شعار يُرفع، أو دعوة تُدعى. إنه أسلوب حياة متكامل. للفرد والأمة. إنه ضياء ثاقب، ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة فى دنيا الفرد، فيجرى فى كيانه عُصارة الحياة، ويُنشئه من جديد ويُحوِّله من مخلوق تافه إلى إنسان ذى رسالة وهدف. ومن حيوان أو سبع إلى كائن أشبه بالملاك.

ويمتد إلى المجتمع بأشعته الوهَّاجة المشرقة، فإذا دم الحياة قد جرى فى عروقه،

والعافية قد سرت فى أوصاله. فيشفيه وهو سقيم، بل يحييه، وهو رميم، أليس فيه نفحة من سر الألوهية التى تقول للشيء: «كن» فيكون؟

الإيمان الحق هو الذى يخط آثاره فى الحياة كلها، ويصبغها بصبغته الربانية فى الأفكار والمفاهيم، والعواطف والمشاعر، والأخلاق والعادات والنُظم والقوانين، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

والأمة التى تريد أن تحيا بالإيمان لا بد أن «تُكيِّف» حياتها ومناهج تفكيرها وسلوكها وفقًا لما يُوجبه عليها منطق الإيمان. وأن تُحرِّر وجودها من كل ما يعوق هذا الإيمان أو يحجب نوره وسناه. وإلا كان إيمانها حبرا على ورق، ودعوى بلا برهان.

فاللَّهم اهد أمتنا إلى صراط الإيمان: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ... آمين.

* * *

الفهـــرس

الموضـــــــوع **الصفحة**

المقدمـــة

(٣ - ١٢)

قضية الإيمان المصيرية الأولى للإنسان........ ٣
اهتداء أولى الألباب إلى الإيمان بالله بطرق شتى........ ٣
ضرورة الإيمان للحياة حتى لو سلمنا بمقياس المنفعة........ ٥
الغرض من هذا الكتاب بيان أثر الإيمان في حياة الإنسان........ ٦
الإيمان الديني عمومًا والإسلامي خصوصًا........ ٩
مفتاح شخصية هذه الأمة هو الإيمان........ ٩
دور الإيمان في معركتنا مع العدو........ ٩
العمل ضد الدين عداء للأمة ومساعدة لعدوها........ ١١
نحن قوم مؤمنون........ ١١

الباب الأول : الإيمان الذى نعنيه

(١٣ - ٤٨)

حقيقة الإيمان

(١٥ - ٣٩)

مفهوم الإيمان الذى نعنيه........ ١٥
محتوى الإيمان الذى نعنيه........ ١٩
وجود الله تعالى........ ٢١
إنما الله إله واحد........ ٢٤
كمال الله تعالى........ ٢٧
الإيمان بالنبوات........ ٣١
الإيمان بالآخرة........ ٣٥

مزايا العقيدة الإسلامية
(٤٠ - ٤٨)
عقيدة واضحة ٤٠
عقيدة الفطرة ٤٠
عقيدة ثابتة ٤١
عقيدة مبرهنة ٤١
عقيدة وسط ٤٢
وهى عقيدة وسط فى صفات الإله ٤٢
الباب الثانى: أثر الإيمان فى حياة الفرد
(٤٩ - ١٧٥)
تمهيد (٥١ - ٥٢)
الإيمان وكرامة الإنسان
(٥٣ - ٧٠)
الإنسان فى نظر الماديين ٥٣
الإنسان فى نظر المؤمنين ٥٥
مكانة الإنسان من الله ٥٧
مكانة الإنسان فى الملأ الأعلى ٥٧
مكانة الإنسان فى هذا العالم المادى ٥٨
علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان ٦٠
عزة الإيمان بعد عزة الإنسانية ٦١
أثر هذه المعانى والمشاعر فى نفسية الفرد ٦٣
بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للإنسان ٦٤
منزلة الإنسان ٦٥
طبيعة الإنسان ٦٦
غاية الإنسان ٦٨

الموضـــــوع | الصفحة

الإيمان والسعادة

(٧١ - ٧٩)

أين السعادة ٧١
هل السعادة فى النعيم المادى؟........................ ٧١
هل السعاة فى الأولاد؟.............................. ٧٥
هل السعادة فى العلم التجريبى....................... ٧٦
السعادة فى داخل الإنسان............................ ٧٨
القدر المادى لتحقيق السعادة........................ ٧٩

سكينة النفس

(٨٠ - ١١٥)

لا سعادة بلا سكينة................................ ٨٠
لا سكينة بلا إيمان................................. ٨١
أسباب السكينة لدى المؤمن.......................... ٨٢
استجابة المؤمن لنداء الفطرة........................ ٨٢
اهتداء المؤمن إلى سر وجوده........................ ٨٨
نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك................... ٩٤
وضوح الغاية والطريق عند المؤمن..................... ٩٩
أنس المؤمن بالوجود كله............................ ١٠٤
المؤمن يعيش فى معية الله........................... ١٠٧
المؤمن يعيش فى صحبة النبيين والصديقين.............. ١٠٩
الصلاة والدعاء من بواعث السكينة.................... ١١٠
المؤمن لا يعيش بين «لو» و«ليت».................... ١١٣

الرضـــا

(١١٦ - ١٣٥)

الفرح والروح فى الرضا واليقين...................... ١١٦

المؤمن راض عن نفسه وعن ربه ١١٨
المؤمن راض عن الكون والحياة ١١٩
المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه ١٢٠
المؤمن راض بما قدَّر الله عليه ١٢٥
المؤمن راض بما قسم الله له من رزق ١٢٧
معنى الرضا بما قسم الله ١٢٩
قصة وعبرة ١٣٠
الرضا مصدر قوة لصاحبه ١٣٢
الرضا لا يقتضى السكوت على الباطل ١٣٥

الأمن النفسى
(١٣٦-١٤٣)

أهمية الأمن النفسى لتحقيق السعادة والسكينة ١٣٦
نموذج للخوف والاضطراب ١٣٦
نموذج للأمن والاستقرار ١٣٧
الإيمان مصدر الأمان ١٣٨
مخاوف الملحدين والشاكين ١٣٩
المؤمن آمن على رزقه ١٣٩
المؤمن آمن على أجله ١٤٠
المؤمن لا يخاف الموت ١٤١

الأمـــل
(١٤٤ - ١٥٣)

أهمية الأمل فى تحقيق السكينة والسعادة ١٤٤
تلازم اليأس والكفر ١٤٦
الإيمان يلد الأمل ١٤٦
ضرورة الأمل فى الحياة ١٥١

الموضـــــوع	الصفحة

الإيمان والحب

(١٥٤ - ١٦٩)

قيمة الحب وأهميته فى تحقيق السعادة ١٥٤
المؤمن يحب كل شيء حتى الكارثة ١٥٥
حب الله ١٥٦
حب الطبيعة ١٥٧
حب الحياة ١٥٩
حب الموت ١٦٠
حب الناس ١٦٠
المؤمن سليم الصدر لا يحسد ولا يحقد ١٦٢
الإيثار من خصائص المؤمنين ١٦٤
عاطفة الكره وإلى أين وجهها الإسلام ١٦٦
التسامح جزء من العقيدة ١٦٨

الثبات فى الشدائد

(١٧٠ - ١٧٥)

الحياة لا تخلو من الشدائد ١٧٠
الملحدون أشد الناس جزعًا ١٧١
ثبات المؤمنين ومصدره ١٧٢
الإيمان بالقدر يهون على المؤمنين البلاء ١٧٣
شعور المؤمن بنعمة الله فى السراء والضراء ١٧٣
مصائب الدنيا تهون ١٧٤
بعض الشر أهون من بعض ١٧٤
حلاوة الثواب ومرارة الألم ١٧٥
الملحدون يعترفون بأثر الإيمان فى الأزمات ١٧٥

الموضـــــوع الصفحة

الباب الثالث : الإيمان فى حياة المجتمع

(١٧٧ - ٢٩٤)

تمهيد

(١٧٩ - ١٨٠)

الإيمان والأخلاق

(١٨١ - ٢٣٣)

الحيوان تكفيه غريزته ١٨١
غرائز الإنسان متضاربة ١٨١
القانون وحده لا يكفى لضبط السلوك الإنسانى ١٨٢
الفلسفة الأخلاقية لا تغنى ١٨٤
الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية ١٨٥
لا أخلاق من غير دين ١٨٦
الإيمان والمثل الأعلى ١٨٧
متاع الحياة وخطره على الأخلاق ١٩٠
سلطان الغريزة وسلطان الإيمان ١٩٥
الإيمان ينتصر على الأنانية ١٩٧
سلطان العادة وسلطان الإيمان ١٩٩
سلطان العادة وقوتها ١٩٩
سلطان الإيمان أقوى ٢٠٠
تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب ٢٠١
فشلت الأساطيل ونجح الإيمان ٢٠٣
الضمير ومكانة الأخلاق ٢٠٥
أثر الإيمان فى تكوين الضمير ٢٠٦
أثر الضمير الدينى فى مجالات الحياة ٢١٠
فى أداء الحقوق المالية ٢١٠
فى الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة ٢١١

في رعاية القوانين والأمانات ٢١٣
في السياسة والحكم ٢١٤
في التجارة والمعاملة ٢١٧
في المواساة والإيثار ٢١٩
اعتراضات وشبهات ٢٢٢
تقيد بعد الملحدين بالفضيلة وتفسيره ٢٢٣
الخوف من الله واليوم الآخر وأثره في التربية ٢٢٤
الدكتور «هنرى لنك» يرد على خصوم التربية الدينية ٢٢٥
خرافة «الضمير بلا إيمان» ٢٣١

البذل والتضحية

(٢٣٤ - ٢٤١)

الأنانية جزء من الكيان الفطرى للإنسان ٢٣٤
الإيمان يهون على الإنسان كل صعب في سبيل الحق ٢٣٦
الفلسفة الأخلاقية المادية لم تحل عقدة الشهيد الذى يموت في سبيل الواجب ٢٣٦
أهمية الجزاء الأخروى في حل العقدة ومكافأة كل عامل على عمله ٢٣٧
نماذج مؤمنة للبذل والتضحية ٢٣٧

القـــوة

(٢٤٢ - ٢٥٩)

حاجة الفرد والمجتمع إلى القوة النفسية ٢٤٢
مصادر القوة عند المؤمن: الإيمان بالله ٢٤٢
الإيمان بالحق ٢٤٤
الإيمان بالخلود ٢٤٥
الإيمان بالقدر ٢٤٦
الإيمان بالأخوة ٢٤٧

على قدر الإيمان تكون القوة ٢٤٨
من ثمار هذه القوة في نفس المؤمن وأخلاقه ٢٤٩
(أ) التزام الحق مع القريب والبعيد ٢٤٩
(ب) الاستهانة بالقوى المادية ٢٥٠
(جـ) الإخلاص في القول والعمل ٢٥٢
(د) التحرر من الخوف والحرص ٢٥٣
(هـ) الاستخفاف بالجبابرة والطغاة ٢٥٣
شهادة التاريخ ٢٥٧
سر الوهن ٢٥٨
التماوت والضعف ينافي الإيمان ٢٥٩

الرحمـــة

(٢٦٠ - ٢٧٠)

قيمة الرحمة والإنسان ٢٦٠
رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى ٢٦٠
من لا يَرحم لا يُرحم ٢٦١
من آثار الرحمة في المجتمع الإسلامي ٢٦٤
الأوقاف الخيرية : وقف الزبادي ٢٦٤
وقف الكلاب الضالة ٢٦٤
وقف الأعراس ٢٦٥
وقف الغاضبات ٢٦٥
وقف مؤنس المرضى والغرباء ٢٦٥
وقف خداع المريض ٢٦٥
الجرائم البشعة وليدة الكفر والقسوة ٢٦٦
ما صنعه الشيوعيون بعضهم ببعض ٢٦٦
مثلان من أمثلة الرحمة المؤمنة ٢٦٨

المثل الأول ٢٦٨
المثل الثانى ٢٧٠

الإيمان والإنتاج
(٢٧١ - ٢٨٢)

الإيمان والعمل ٢٧١
دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتى ٢٧٢
الفوز فى الآخرة بالعمل لا بالأمانى ٢٧٢
النجاح فى الدنيا بالعمل ٢٧٣
المؤمن يخشى الله فى عمله فيتقنه ٢٧٤
أثر السكينة النفسية فى الإنتاج ٢٧٥
أثر الاستقامة فى الإنتاج ٢٧٥
إحساس المؤمن بقيمة الوقت ٢٧٦
العبادات والإنتاج ٢٧٧
المؤمن يعمر أرض الله بالعمل ٢٧٩
الإيمان بالآخرة لا يعطل الدنيا ٢٨٠
التوكل ليس معناه التواكل ٢٨١

الإيمان والإصلاح
(٢٨٣ - ٢٩٤)

ضرورة التغير النفسى لكل حركة ونهضة ناجحة ٢٨٣
صعوبة هذا التغيير وعسره ٢٨٣
بناء الإنسان أصعب من بناء السدود والمصانع ٢٨٣
الإيمان ينشئ الإنسان خلقًا آخر ٢٨٤
أمثلة لما صنعه الإيمان: سحرة فرعون حين آمنوا ٢٨٥
تأثير الإسلام فى نفسية العرب ٢٨٦
عمر بن الخطاب ٢٨٧

الموضـــــوع	الصفحة

الخنساء بين الجاهلية والإسلام ٢٨٧
المفتاح الفذ لأقفال الحياة ٢٨٨

الباب الرابع: بين العلم والإيمان

(٢٩٥ - ٣٣٠)

دعوى الاستغناء بالعلم المادى ٢٩٧
المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم ٢٩٧
نقض هذه الدعوى – مجال العلم غير مجال الإيمان ٢٩٨
نتائج العلم تقريبية لا يقينية ٣٠٠
الرسوخ فى العلم يهدى إلى الإيمان ٣٠٢
هل وراء الإلحاد مكاسب حقيقية؟ ٣٠٥
دعوى الصحة النفسية والعقلية ٣٠٦
شهادات من الغرب والشرق تنقض هذه الدعوى ٣٠٦
هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل ٣٠٩
الحرية الشخصية وآثارها ٣١١
العمل والإنتاج للحياة ٣١٥
علم النفس لا يغنى عن الإيمان ٣١٥
الطب النفسى فى موكب الإيمان ٣١٩
الخاتمة ٣٣١
الفهرس ٣٣٤